القضايا الإنســـــانية والنضالية في الشّـــــعر الحر

د. عفاف محمد عليّ الخراز ـ كلية التربية قصر بن غشير
جامعة طرابلس

المقدمـــــــة :

يكاد يُجمـــع الباحثــون في الأدب الحديث على أن الشعر الحــر أهم ظاهرة أدبية في تاريخ الأدب العربـــي الحديث ، وأنه كان ثورة على نظام القصيدة العربية تجاوزت في قوتها وتأثيرها أية محاولة أخــرى للخروج من تقاليدها الراسخة في أي عصر من العصور؛ ولكن يتجدد مفهومنا للشـــعر الحر فإننا نعني به شعر التفعيلة الذي أصبح يؤرخ له بظهور قصيدتي " الكوليرا و " ليس حباً "، على أن هذا التحديد لا ينفي المحاولات السابقة عليهما . واكتسب الشعر الحرّ أهمية أكبر حين ارتبط معظم رواد الكبار بالواقعية الجديدة التي تمثل الوجه الفني لنظرية سياسية واجتماعية واقتصادية، نرى في الأدب نشاطاً إنسانياً له وظيفته الاجتماعية ودوره في أحدث التغيرات العميقة في بنية المجتمع.

وعلى الرغـــم من أن الســاحة الليبية قدّمت عدداً من الشّـــعراء الذين التزموا بالقضايا النضالية ودافعــوا عنها فإننا لا نكاد نجد الشــعراء هذه الساحة وجوداً يذكر في الدّراسات العربية ومازالت ظاهرة الشعر الحر في ليبيا شبه مجهولة لكثير من الباحثين العرب وربما لليبيين أنفسهم ، وكان للتطورات السياسية والعلمية التي شهدها العالم بعد الحرب العالمية الثانية ـ نتائج كبيرة غيرت نظرة الإنسان إلى الحياة من حوله وأحدثت ثورة فيما كان يؤمن به من مفاهيم وقيم وجعلته يعيد النظر في كثير من الأفكار التي كانت تشكل رؤيته وترسم أسلوب حياته. وكان من الطبيعي ارتباط حركة النضال القومي بحركات التحرر الوطني من أفريقيا وأسيا وأمريكا اللاتينية ؛ إنما نعني بالقضايا الإنسانيـــة القضايا النضالية التي لا تتجاوز المجالين الوطنـــي والقومي وتتواصل مع مجال أوسع وأرحب هــو قضايا الإنسان وما يعنينا هو موقف الشاعــر الليبيّ منها ونظرته إليها ومدى مشاركته فيها فقد كانت التطــورات السياسية والعلمية ـ التي شــهدها العالم بعد الحرب العالمية الثانيـــة نتائج كبيرة غيّرت نظــرة الإنسان إلى

الحياة من حوله وأحدثت ثورة فيما كان يؤمن به من مفاهيم وقيـــم ، وجعلته يعيد النظـــر في كثير من الأفكار التي كانت تشـكّل رؤيته وترســـم أسلوب حياته ولعل من أهم تلك التطـــورات ما أصبح ينادي به العلماء والمفكرون من ضرورة إعادة صياغة حياة الإنسان على أسس جديدة تنبذ العنف والحروب وتدعـــو إلى السّلام والتآخي الإنساني ووحدة الحياة على الكون وتحذر من المخاطر التي تهدد الحياة بسبب التطور الهائل الذي حدث في صناعة الأسلحة الذرية والنووية، وخطورة تنافس القوى الكبرى على اقتنائها وتخزينها مما يهدد العالم بكارثة لا يعرف مداها . [1]، وكذلك فقد كان لثورة الاتصالات المختلفة أثـــر كبير في إلغاء المسافات بين الدّول مما أحدث نوعاً من التقارب بين الشعوب فألغـــى كثيراً من الحواجـــز المادية والنفسية التي كانت تقف حائلاً دون تفاهمها وتعاونها وتحقيق رغبتها في خلق عالم جديد ينعم بالأمن والسّلام والرخاء.

فقد كانت الشعوب التي عانت من الاستعمار في إفريقية وآسيا أكثر تطلعاً لتحقيـــق هذا الحلم بسبب ما وقع عليها من قـــهر وظلم وما فرض عليها من فقر وتخلّف وما ألحقه المستعمرون بها من ضـــرر عطّل نموّها وعرقل تقدمها .

وكان من الطبيعي أن ترتبط حركة النضال القومي في الوطن العربي بحركات التحـــرر الوطني في إفريقية وآسيا وأمريكا اللاتينية وأن تتعاطف مع حركات الكفاح ضد العنصرية في الولايات المتحدة الأمريكية وفي جنوب أفريقيا وفي اجزاء أخرى من العالم، وأن يتجاوب مع دعوات السلام المناهضة للحروب والتجارب الذرية ، لأن تلك الحركات كانت تشكّل دعماً للكفاح العربـــي ضد الاستعمار والاحتلال الصهيوني، العنصري الأراضي العربية، وقد استأثرت هذه القضايا باهتمام الشعراء الذين انتموا إلى الواقعية وصارت تشكّل جانباً بارزاً في رؤيتهم السياسية ، ونظرتهم العالم من حولهم يقول عليّ الرقيعي في حديثه. عن شاعرية خالد زغبية " اهتم مع زملائه الشعراء بالعديد من قضايا الحرية وكفاح الشعوب ضد الاستعمار والتخلف وضد جميع المحاولات القدرة التي يرتكبها أعداء الإنسان لربط مصير الملايين بأغلال العبودية [2]

ويقول خالد زغبية متحدثاً عن شعراء الواقعية في ليبيا وعن اهتماماتهم بالقضايا الإنسانية : " فقد ضحّوا بالكثير في سبيل إرساء المدرســـة الواقعية من خلال ترسيخ المضامين التقدميـــة الجديدة للحرية والاشتراكيـــة والوحدة بالإضافة إلى مواكبتهم

للأحداث العالمية كقضية التفرقة العنصرية وقضايا النضال في فيتنام وكوريا والكونغو بحيث كان موقفهم الفني انعكاسا لموقفهم الاجتماعي "[3]

وكانت هذه القضايا من أبرز الموضوعات التي يدور حولها الحوار والمجادلات بين النقاد في أواخـــر الخمسينيات، وفي مقال كتبه الرقيعي في أوائل سنة 1959م يحدّد الكاتب المجالات التي ينبغي أن تتجـــه إليها جهود المهتمين بمصير الإنسان ومستقبله في " الاشتراك الفعلي لكل القوى البشرية العاملة في مجال اختصاصاتها المبدعة التي يمكن أن تحوّل المسافات الصحراوية الطويلة إلى ميادين معبدة تقام فيها احتفالات الشباب وأعراس الربيع ، لا إلى مجال تجارب ذرية تقتل البشر بالجملة كالكلاب ولا ميدان فسيح يطل عليه (مستر دالاس) من خلال نظارته البلورية كمنبع لاستثمارات الإمبريالية وقواعد عسكرية لحرق الأطفال أو تحكم في مناطق النفوذ [4]، وفي المقال نفسه يربط الكاتب بين ما يســـمى بأمراض العصر والمناخ العالمي الذي تسيطر عليه القـــوّة وخطر الحروب الذرية، ويخضع للهيمنة الاستعمارية والاستغلال الإمبريالي يدعـــو الأدباء و الكتاّب الذين يدّعون الحرص على مصير الإنسان أن يحددوا موقفاً صريحاً من تلك القوى وأن يكشفوا دورها الخبيث في إشاعة الرعب وفي تهديد أمن الإنسان وحياته يقول " و الذين يهدفون إلى حماية الإنسان من القلق والحيرة والمصير الغامض ، عليهم أن يحاربوا أسباب القلـــق ودوافعه عليهم أن يخرجوا ولو مـــرة ليحددوا موقفهم من الحـــرب أيديولوجية الإمبريالية العالمية وكل العقليات التي تهدّد الإنسان وتجهّز له خنادق ضخمة لدفن البشر بالجملة ، وعقلية الحرب والجريمة ومناطق النفوذ والقواعـــد التي تحرق الأطفال والقواعد الصاروخية والاستراتيجية العدائية في كل مكان، والقذائف الموجهة والأسلحة ذات الفتك الجماعي الواسع هي التي تصنع قلق الإنسان وحيرته وخوفه وتصبح مشاعره بالدم ورائحة الأشلاء والحرائق [5]

لقد بـــرزت ثقافة جديدة تُؤمن بوحدة الإنسان وبوحدة مصيره وتُدرك الأخطار التي تُهدد أمنـــه وسلامته ، وتعرف - أيضا - مصدر تلك الأخطار، وتـــرى ضرورة أن تســـود بين البشـــر العلاقات الإنسانية بصرف النظر عن عرقه أو لونه أو موقعه الجغرافي ، وهذه النظرة الجديدة التي تؤمن بأن العالم هو موطن لجميع البشر ينبغي أن يسوده الأمـــن والرخاء ، وأن تتوحّد فيه القـــوى الخيرة لتقف ضد قوى الشر والعدوان هي النظرة التي نجدها لدى الشعراء الواقعيين في ليبيا الذين أعلنوا انحيازهم

إلى قضايا الحرية ودعوا إلى الكفاح ضد الاستعمار والامبريالية والصهيونية، ونادوا بالتعاون بين الشعوب بصرف النظر عن الاختلافات غير الجوهرية التي لا ينبغي لها أن تقف حاجزاً بين البشر من أجل الانتقاء على الصعيد الإنساني الذي يوحدهم

يقول حسن محمد صالح :[6]

حبيبتي لا تيأسي إن كنت من بعيد

إن كنت من (بكين) أو (عمان)

لأنني إنسان

حبيبتي لأنني إنسان

أكفر بالحدود والأوطان

العالم المعذب الحيران

وإذا كانت قوى الشر والبغي تتوحد في جبهة واحدة في عدائها للشعوب، فإن تلك الشعوب مطالبة أيضاً أن توحد جهودها في مجابهتها، فالعدو واحد لأنه لا فرق بين الوجود العنصري الصهيوني في فلسطين أو الوجود البريطاني في جنوب اليمن أو الوجود الأمريكي في فيتنام فكل هذه القوى تعكر السلام وتنشر الخراب والدمار وتنهب خيرات الشعوب وتستعبدها :

فعدونا في (القدس) في (عدن) وفي (هانوي) واحد

فلتلتق الأيادي على طلق الرصاص [7]

والشعوب مطالبة بالثورة على جلاديها وعلى المتعاونين معهم فكل انتفاضة تطيح بقوى القهر والتخلف في أي جزء من العالم هي مساهمة في بناء صرح السّلام وانتصار كفاح الإنسان :

من أجل أن تبرعم زهيرة حمراء

من أجل أن ترفرف حمامة بيضاء

من أجل أن يسود الحب والسلام

من أجل هذا كله قد ثارت الأحرار

وانطلقت طلائع الثوار (8)

وبينما تتطلع الشعوب إلى مستقبل حرّ سعيد تصنع فجره بنضالها وجهدها فإن الإمبريالية العالمية بزعامة أمريكا تسعى إلى شن الحروب وترويج تجارة السلاح والسيطرة على اقتصاد العالم وتجويع الشعوب وحرمانها من العيش في أمن وسلام :

يا بلاداً ليس فيها، يتحكم

غير دولار حقير.

ومصانع الذخيرة

رودّها طعمة المنتهزين

مثل " و كفيلر " و " فورد"

بجهود الكادحين

لتشيع الرعب بين الناس في كل مكان.

وتنمي الاحتكار

بين تجار الحروب.

سالبي أمن الشعوب (9)

وإذا كانت القوى الشريرة تعمل على إغراق العالم في حالة من الظلام والإحباط لتسدّ منافذ النور أمام المؤمنين بمستقبل الإنسان، فإن تلك القوى مهما بلغ جبروتها لا تستطيع أن تقتل في الإنسان الروح الخيرة التي تهدي خطاه لتجاوز حالة اليأس والتردي :

يا رفيقة

خلّنا للحب نجني

من حقول الشوق زهرة

خلّنا للكون نهدي

من زهور الحب باقة

علّنا نصنع للإنسان فجراً

كي يرى في عتمة الليل طريقه (10)

الوعي هو نقطة البداية لأي تغيير، والقوى الحية في هذا العالم بدأت تعثر على نفسها وتتحسس قسماتها، وتعرف أهدافها وتدرك أيضا الصعوبات التي تعترضها، لكنها تثق في إمكاناتها، وفي قدرتها على تحقيق الهدف والوصول إلى غاياتها :

أنا هنا نشرت للعواصف القلاع

بدأت رحلة الحياة لم تنزل دماؤها تضج بالعروق

ولم أزل في بيعتي في العنفوان

دليلي الســـلام والإنسان

مضيت للأمام للأمام

أصارع الأمـــواج، والأمواج

ورفقتي معي يجذفون

وينشدون غنوة السلام والأمـــان (11)

ويظل المضي إلى الأمام على الرغم من مشاق الإبحار - هو التجسيد الحي لثقة الشاعر في انتصار الحياة وهزيمة أعدائه ، وتظل سواعد الرفاق المجذفه رمزاً لوحدة النضال الإنساني وأصواتهم المترنمة وأناشيد السلام إرهاصا بالغد المرتقب ، وتتسع نظرة الشاعـر لتشمل هموم الإنسان وما يعانيه من قهـر وفقر وإذلال في أي مكان، وتصبح رحلاته الشاقة كفاحاً من أجل هذا الإنسان ودفاعاً عنه ، حزنًا لمأساته.

وإذا لاقاك طفل ذابل العينين يقتات رماد

في بلاد الفقر والقهر في أي بلاد

فاقرئي ملحمة الأحزان هذي

اقرئيها

فهي إرث السندباد [12]

إن أمنية الإنسان البسيط هي العيش في أمن وطمأنينة وفي عالم يسوده الحب والسلام لكن القوى الشريرة الطامعة إلى السيطرة والاستغلال هي التي تعكر صفو الحياة فتثير الحروب ، وتبعث بالبسطاء ليموتوا نيابة عنها في معارك ليست معاركهم

إن معارك البسطاء يجب أن تكون موجهة ضد الاستعمار و الفقر والاستبداد، ومن أجل حياة حرّة كريمة خالية من الخوف والقلق ، وزاخرة بالحب والعطاء، وسيحارب هؤلاء البسطاء معركتهم الحقيقية عند ما يدركون أنهم يموتون بالمجان من أجل أن يعيش الأقوياء الذين يبنون سعادتهم على جماجمهم، والوعي بهذه الحقيقة هو الذي سيطرح السؤال المهم : لمصلحة من يموت أولئك البسطاء

من يعيد يا أحباء السلام

بحضن الجندي ما ليس يريد

بندقية

وبعينيه بقايا أغنيات غزلية

وتصير الحبيبة

وبها أيضا سؤال لا يحيد

آه يا أيتها الحرب اللعينة

لو أموت الآن من ذا المستفيد ؟ [13]

يقول صلاح عبد الصبور:" لقد وهب الإنسان الأرض عشرة آلاف سنة منذ نشأ أول تجمع إنساني ووهب إلى حوار ذلك عقلا وفكراً وتدبيراً تساعده على ربط السبب بالغاية ، وكان في مقدوره أن يجعل من هذه الأرض جنّته، لو أحسن استغلال ميراثه العظيم ، ولكنه جعل منها جحيمه المقيم " [14]، لقد أتقـــن الأقوياء صناعة المـــوت وتباروا في صناعة ما يقتل أكثر وأسرع وحولوا العالم إلى ميدان حرب كل ما فيه يُمِيتُ

أو يثير الإحساس بالموت، وصار الإنسان كأنه يعيش في غابة من الوحوش البقاء فيها لمن يملك الناب والظفر .

صارت السن التي ألمحها في فم طفل

يترعرع

ناب وحش سوف ينمو

ليعض الآخرين

وليبدع

صنع ما يقتل أسرع. (15)

إنّ جنون البغـي وتطـرف أدواته في إرهـاب الآخـرين يحيلان الحياة إلـى جحيـم ويصبغان عليها لوناً شديد السـواد هذه هي المحصلة النهائية التي يصل إليها الإنسان عند ما يـرى ما حوله ينهار ويتداعى تحت وطأة البغي فيستسلم لليأس ويفقد القدرة على الفعل في واقع منهار لا يسـمح لأمل ولا يتوق لحلم، وعندئذ يصبح الحـزن هو الرسالة الوحيدة التي يستطيع الشاعـر أن يبلغها للآخـرين :

يا ولدي الإنسان.

ما عاد في حقائبي سوى رسائل الأحزان (16)

وإذا كان حال العالم قد أوصل الفزانـي إلى الحـزن فإن إدريس الطيب يرى أن العالم يسير في خط يفضي إلى الجنون، بما يثيره من نزاعات حول مسائل غير جوهرية متناسياً أن الإنسان في النهاية واحد وإن خفى على بعض الأعين التي " تنظر إلى التباين الظاهر فتظنه تباينا أصيلاً " (17)

نحن رقم واحد لكننا أكثر من ذاك.

كثيرا

كلنا يحضن في طياته ربّاً و شكلاً

للعبادة

غير أنا

لم نزل نرتاد نفس المنحى

ونخطط

خط هذا العالم المجنون يفضي للجنون (18)

" إن الفنانين هم أكثر الكائنات استشعاراً للخطر، ولكن الفئران حين تستشعر الخطر تعدو لتلقي بنفسها في البحر هرباً من السفينة الغارقة أما الفنانون فإنهم يظلون يقرعون الأجراس، ويصرخون بملء الفم حتى ينقذوا السفينة أو يغرقوا معها " (19)

الفنان لا يتخلى عن مسؤوليته ويظل يدق أجراس الخط ويصرخ في وجه الرياح الهمجية ليوقف جنون القوة ويمنع الانهيار، والشاعر إدريس الطيب على الرغم من تشاؤمه من الحالة التي وصل إليها جنون العالم فإنه يؤمن بأنه في استطاعة المؤمنين بمستقبل الإنسان أن يتعاونوا على أن ينقذوا ما يمكن إنقاذه ، فالأمل يظل معقودا بأولئك الشجعان الذين يتحاملون على جراحهم ليكونوا الجسر الذي يعبر عليه الآخرون :

لنكن أمثال قشة

في خضم البحر رمزاً للحياة

ولنمرض جرحنا الدامي بأن نحيا ليحيا

الأخـــرون (20)

هذا الحس الإنساني العميق بالدور الذي يمكن أن يقوم به الشاعر من أجل الآخرين هو نفسه ما تجده عند محمد الشلطامي الذي يحتضن قلبه ملايين المعذبين في الأرض من ضحايا البطش والاستغلال ليؤكد بأن المستقبل سيكون لهم، وأنهم سيثورون على الطغاة وسيدوسون بأقدامهم الحافية صلف الجبابرة ويحطمون كبرياء المتغطرسين :

حينما يزحم قلبي

بملايين الحفاة

اه كم يحلم هذا القلب

يستشعر

وقع القدم الحافي على وجه الأبد

ويوجه السطوة الفاجر

في كل بلد (21)

لقد التزم شعراء الشعر الحر بقضايا الإنسان ووقفوا موقف الرفض من كل ما من شأنه أن يمس كرامته ، أو يهدد مستقبله، وأدانوا الممارسات غير الإنسانية والجرائم التي ارتكبت في حقه أو نالت حق من حقوقه، وكانت قنبلة (هيروشيما) أحد الموضوعات ذات البعد الإنساني التي تناولها بعض الشعراء، ولم يكن ذلك لكونها حدثاً تاريخياً طواه الزمن ولكن لأنها كانت أكبر فاجعة تاريخية في حجمها ونوعها عرفتها البشرية في تاريخها الحديث ؛ ولأنها تمثل جبروت القوة ووحشية القوى الامبريالية ولأنها - أيضاً - تنذر بالمخاطـر التي يمكن أن تهدّد حياة الإنسان ووجوده على الأرض مالم تضع الإنسانية حداً لضـراوة العنف وغطرسة القوة.

وما من شك في أن الشعراء الليبيين كانوا متأثرين في اهتمامهم بهذا الموضوع بالاتجاه الواقعي، وبالشعراء الواقعيين الذين أولـوْا اهتماماً كبيرا لقضايا الإنسان ولقضايا السلام العالمي، وانسجاماً مع هذا الاتجاه نجد (حسن صالح) يصدر قصيدته "هيروشيما " بعبارة ناظم حكمت التي يقول فيها " في كل مساء تطرق بابي طفلة بأصابع مجروحة بلا صوت تقول لي : ناضل ضد التجارب الذرية" (22)

وقصيدة حسن صالح هي جزء من هذا النضال الذي تقوده قوى الخير والمحبة للسلام ضد أسلحة الدمار وضد أعداء الإنسان، حيث يحتضر الشاعر في حب ومواساة مدينة هيروشيما النازفة والمحترقة بنيران الرعب والموت معلناً تضامنه الإنساني معها ومنددا بقوى الشر . زارعي الشر والدمار، ومحياً صمود المدينة المنكوبة الصامدة في وجه نيران الهمج أعداء الإنسان :

هيروشيما – آه يا حبي

يا جرحاً ينزف في قلبي

يا حباً لم يولد قط

في مهجة مغرم صب

أنا آت - آت يا حبّي

هيروشيما - - آه يا حبي

خيراتك ما كانت يوماً

ذهباً لذباب المغتصب

بالأمس وأنت مورقة

الأسوار مسمرة الغضب

زرعوا في قلبك نيران

الشهوات واشعاع الرعب

لكنك صامدة العينين

وقفت بقلب ملتهب

في وجه الطاغوت ووجه

الطاعون وتجار الحرب (23)

أما خالد زغبية فقد صوّر مأســـاة هيروشيما من خلال تتبعه لمراحل حياة العجوز (أزداكـــو) التي لقيت حتفها في كوخها متأثرة بالإشعاع الـذري ، حيث تتبع طفولته او هي تمرح في الحقول مع أترابها تضاحك النهار وتعابث الأزهار، وتترنم مع الأطيار سعيدة بطفولتها البريئة النقية ، ثم يتابعها في مرحلة الشباب وهي تتفتح للحياة والحب مثلما تتفتح زهرة البشنين في حقول بلادها فتحب وتتزوج وتنجب الأطفال وتسير بها الحياة طبيعية لا يعكر صفوها شيء.

وقد أراد الشاعر بعرض هذه المراحل أن يعطينا خلفية عن الحياة الرضية الآمنة التي عاشتها أزادكو في طفولتها وشبابها قبل أن تقع الفاجعة، وهي الصورة الطبيعية التي يمكن أن يعيشها الإنسان إذا لم تعترضها أشياء خارجة عن إرادتها ، يقول خالد زغبية :

هناك في اليابان

وفي حقول القمح والشعير

والشوفان

في رفقة الأزهار

أزادكو طالما ضاحكت النهار

عابثت الغصون والأوراق والأزهار

ورنمت مع الطيور

أهزوجة الحياة في البكور

ومرت الشهور

وكرت الأعوام

وفي ربيع كل عام

وعندما تلوح في الحقول

براعم الزهور

وكلما تفتحت زهيرة البشنين

ترعرعت آزادكو وازدهت فنون

وفي ربيعها العشرين

زفت إلى حبيبها ليوشين

وأنجبت بنين

وأوغلت في سيرها السنون

و دلفت أزادكو للتسعين (24)

غير أن هذا المشهد النابض بالحياة المتدفق بالعطاء العامر بالبراءة والمرح والسعادة لا يلبث أن يتغير إلى حرائق و دمار و خراب وأشلاء ودماء وموت وخوف عندما تتحرك نوازع الشر وشهوة الدم في نفوس مصاصي الدماء أعداء الإنسان والحياة :

وفي خريف موحش رهيب

تململ مارس في الغروب

وزغردت في دمه ، أنشودة الغناء

وأطلق إشعاعه المميت في الفضاء

واندلع اللهيب

يمتد للجبال ، والسهول

فصارت الحقول

كعصف مأكول

وغاب عن عيون الأهل في اليابان

أقارب وأخوة وصبية صغار

وظل مارس الرهيب

ينفث في البلاد

سمومه السوداء

فتلفح القلوب والأكباد

تمرح في الدماء (25)

وعندما بدأت فرنسا في إجراء تجاربها الذرية في صحراء الجزائر أثار هذا الفعل غضب الشعوب المحبة للسلام التي ما زالت كارثة أول قنبلة ذرية تعيش في وجدانها، وكان الشعب الليبي الذي قاسي من الاستعمار وعانى من ويلات الخراب والدمار في الحرب العالمية الثانية عندما اتخذت القوى المتحاربة أرضه ميداناً لحرب لا ناقة له فيها ولا جمل ، كان الشعب الليبي في طليعة الشعوب التي استنكرت التجارب الذرية وطالبت

بإيقانها وقد سجل الشاعر علي صدقي عبد القادر هذا الموقف للشعب الليبي في قصيدته " ضد التفجير الذري"

التي يجرّم فيها الغرب الذي يرمز اليه "بالفئران الشقر" الموبوءة بداء الطاعون ويدعو الشعوب إلى مقاطعة الغرب وسد الأبواب في وجهه حتى لا تستشري عدوي أمراضه القاتلة التي أفسد الحياة وتقضي على كل شيء جميل فيها

ومشى وطني ذات صباح

ومشت أدوات بيوت الشعب

حتى إبرة أختي تمشي

حتى مرآة ومشط والدتي المرحومة

حتى مسبحة أبي الراحل هنا

لتسد الباب المفتوح على الميناء

في وجه الفئران الشقراء

كي تحمي حقلك يا أفريقيا

من ناب الفئران المرضى بالطاعون

كي تحمى خطوات ربيع حلو

تطبع حقل بلادي بالقبلات

كفرش الآف النجمات

وتضاحك سكان الخيمات (26)

ولم تستطع قوى البغي والعدوان أن تمنع الشعوب المناضلة من الكفاح في سبيل استخلاص حريتها وانتزاع حقوقها ، وقد أنجبت حركات التحرر الوطني والمقاومة الوطنية عدداً من الأبطال الذين دافعوا عن المثل الإنسانية والعدالة وناضلوا من أجل الإنسان وحريته ، وسقطوا شهداء في ساحات الكفاح المختلفة وكان استشهادهم تأكيداً لقيمة الحياة الحرة ونموذجا لقدرة الإنسان على البذل والعطاء في سبيل ما تؤمن به

ولقد اهتم شعراء الشعر الحر في ليبيا بأبطال الحرية وشهدائها من المقاتلين والمناضلين المثقفين وأفردوا لهم مساحة واسعة في شعرهم تقديراً لدورهم البطولي في الدفاع عن قضايا الحرية وتمسكهم بالقيم الإنسانية النبيلة التي دفعوا حياتهم ثمناً لهم وكان باتريس لومومبا المناضل الكونغولي أحد أبطال " الحرية في إفريقيا الذين أشعلوا نار الثورة في القارة السوداء وأيقظوها من سباتها العميق وجعلوا أناشيد الثورة تتردد في غاباتها تزعج الاستعمار ويتجمع حولها الثوار والأنصار، وكان اغتياله مؤامرة إمبريالية تهدف إلى إرهاب الزعامات ذات الخط الوطني لكي تحتفظ تلك القوى بمناطق نفوذها وتستمر في نهب خيراتها (27)

يا فارسا معفر الجبين بالجراح

يا صامداً في وجه ليل الموت والرياح

عيناك عبر ليل الكونغو توقظ الصباح

وتزرع السهول والوديان غابة من السلاح

يا فارسا معفر الجبين بالجراح

كتائب للأنصار والثوار

لا بد أن تجتاح.

ليل الطواغيت وتخرس النباح

يا غنوة تولد في القلوب والبطاح

المجد الأنصار والكفاح (28)

وقد استحق لومومبا أن يكون بطلاً لأنه احتضن قضية شعبه وأحس بآلامه وأحزانه وعرف كيف يوقظ فيه الوعي بقضيته وكيف يخرجه من ظلمات القهر ليبصر نور الحرية لقد كان لومومبا حلم أطفال الكونغو الجائعين العراة الذين جردهم المستعمر من أبسط الحقوق الإنسانية ، لكن هؤلاء الأطفال ، رغم بؤسهم وشقائهم يتطلعون في أمل إلى بطل الكونغو الفارس الذي سيحقق الحلم : -

يا فارس أطفال كيفو جائعون .

صفر الوجوه، ضامرو البطون ل

لكنهم إليك ينظرون ويحلمون

بفارس عيناه نجمتان

يبعث من غياهب السجون

يزرع أرض الكونغو بالسلام

والحب والزيتون

يا فارس أطفال " كيفو" جائعون

لكنهم وراء الليل صامدون

وراء ليل الموت وإلا ّنذال صامدون

لا بد أن تتحطم الأسلاك والسجون

ويولد الصباح مشعشع العيون (29)

إن البطل المعاصر ليس مخلوقاً أسطورياً يملك من القوى الخارقة ما يخرق به قوانين الطبيعة فيتعالى عن كونه إنسانا عادياً، البطل المعاصر إنسان عادي وقد يكون بسيطا جداً ولكنه يكتسب عظمته من قوة إيمانه بالقضية التي يناضل من أجلها ومن قدرته على الصمود ومما يتركه من أثر في النفوس الذين يناضل من أجلهم ، وهو حين يختار الموت طائعاً إنما يكون ذلك للحفاظ على استمرار القضية التي استشهد من أجلها ولأن الموت - في هذه الحالة - يصبح هو الثمن الذي ينبغي أن يدفعه المناضل لتعيش قضيته وقد عرفت إفريقيا الاستعمار، ومنذ عرفته عاشت ليلا حالك السواد، و لومومبا هو الفارس الأفريقي الذي أضاء ليلها التعيس ، وغرس في النفوس مبادي الثورة ، فاستيقظت من رقدتها الطويلة تستمد من صموده الصبر على الكفاح ، وتستهين بسجون الجلادين، وتتطلع إلى ضوء النهار .

إن صمود لومومبا في وجه الجلادين هو سر بطولته وهو الذي حرك الملايين المتعطشة إلى فجر الحرية والانطلاق :

يا مشعل النهار.

في ليل إفريقيا ، ويا أغنية الثوار

يا فارسا لم يعرف الفرار

عيناك تزرع الربيع في القفار

وتمنح الحياة والأوراق (30)

و لومومبا عند خالد زغبية لم يمت؛ لأنه سيظل حيًا في النفوس لأن مبادئه قد تشرّبها الاف الثوار الذين سيواصلون مسيرته ، لقد كان بطلاً تحمل العذاب والألم من أجل الآخرين فهو سيزيف وهو عيسى المسيح :

سيزيفي ما مات شديداً

سيزيفي ما عاد وحيداً

في كونغوليا

ألف سيزيف كونغولي

مازالوا ، صبرا

كالصخرة

برئون شوقاً للقمة

في غابات الكونغو الحرة (31)

و لومومبا عند علي الرقيعى بطل من أبطال الحرية لأنه أستطاع أن يحطم القيد ويهدّ أسوار الليل وأن يعيد للمواطن الكونغولي ذاكرته التاريخية ليستعيد هويته الوطنية الكونغولية التي حاول المستعمر طمسها :

بغتة حل وثاقي عن يديا

وهو يعطيني يديه

فارس من ألق الضوء الربيعي جواده

كان في صمت الدجى يبحث عني

هدّ سور الليل وإنداح إليا

ساكبا في مسمعيا

غنوة خضراء كنغولية الأشواق غناها أبي

من زمان

فتندت فوق جرحي المتعب

فإذا الكونغو بحيرات ضياء تترقرق.

وإذا روحي من سجن الليل تتدفق

وإذا الشمس على صدري تصلي

تحمل الخصب لأجلى

تزرع النوار في درب الرياح البربرية (32) .

أما لطفي عبد اللطيف فقد تناول موت لومومبا بشيء من السخرية المرة وبشيء من الواقعية، ولعله الوحيد من بين الشعراء العرب جميعاً الذي أخذ القضية على هذا المأخذ من السخرية اللاذعة، وهذا ما جعله يسم قصيدته في لومومبا (الأغبياء) وهو يقصد بالأغبياء الذين يرددون في مثل هذه الفاجعة الأقوال المألوفة المكرّرة التي لا تغير في حقيقة ما حدث شيئاً ولذلك فإنه يؤكد أن لومومبا قد مات فعلاً حتى ولو قال

الأخرون إنه حي في القلوب

هل تعلمون أن الذي بفكره غز القمر

يحكمه أجهل منه

وأن نائما بالسجن قاتلا يحرسه أضعف منه

وأن لومومبا الذي يقال اليوم في القلوب لم يزل

بالفعل مات

هل تعلمون أنه مات بالفعل ؟ (33)

إن لومومبا قد مات فعلاً قتله أعداء الحياة، وسواء دفن في الوحل أم في القلب فالأمر سيان ، لأن كلمات الرثاء و مظاهرات التنديد لن تجدي المقتول شيئاً ما دام القاتل مطلق اليدين يعذب ويقتل ويفتك بالآخرين كيفما يشاء دون مانع أو رادع ، لأنه سيظل سادراً في غيه يستمتع بجرائمه البشعة

إن لطفي عبد اللطيف يدعو بطريقته الخاصة إلى مواجهة العنف بالعنف وإلى اجتثاث الشر من جذوره لأن الكلمات الساخطة والمظاهرات الغاضبة لن توقف المعتدي على عدوانه ، ما دام يدرك أنه الباقي وغيره يموت :

حتى إذا هوى جبل

دفنتموه في الوحل.

أو في قلوبكم يعيش هكذا تقولون أو يعيش ذا البطل

وقاتل النبي ظل

تسخرّ له الدما وبالدموع يغتسل

وفي الفراش يستعيد لعنات تلكم الظاهرة

وفي يديه عاهرة

كتلكم المظاهرة

لأنها بلا مصير (34)

وقد خص الشاعر على صدقي عبد القادر لومومبا بقصدتين (35) تعرض فيهما المؤامرات الاستعمارية ولدور المناضل لومومبا في تأجيج نار الثورة وفي توعية الشعب الكونغولي بضرورة الكفاح مؤكداً أن موته لن يخمد نيران الثورة، وأن الشعب الكونغولي سيواصل الكفاح وأنه سيولد مع كل فجر لومومبا جديد يحمل راية النضال

لومومبا الذي ارتقبته الصبايا بأغرودة وزهرة

لتلقيهما فوق موكبه الصاعد المندفع

قضى بين أيك لغاب أحبه

بخنجر أعداء أفريقيا

ولكن سيرجع ، الغاب عند هبوب الرياح

سيرجع في كل وجه لطفل وليد

سيرجع فى كل فجر (لومومبا) جديد (36)

وتشي جيفارا واحد من أبطال الحرية سطر بالدم أسطورة حبه للنضال الإنساني من أجل الحرية، وأعطى نموذجاً للثوري الذي يلتزم بقضية الثورة فلا يقع في إغراء السلطة وغوايتها ولا يقنع بما تحقق .

يقول البياتي عنه " كنت اعتبره الرمز والأمل الوحيد الباقي لكادحي ومثقفي العالم المضطهدين والمظلومين، والذي كنت أعتبره أول بطل نموذجي في جيلنا تخطي أسوار الحاضر المتعفن وأسوار الإمبريالية العالمية التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية هذا البطل الذي تخطى بنقائه وسموه وثوريته أبطال سارتز ومالرو وألبير كامي ـ" (37)

ولا تبتعد صورة جيفارا في أذهان الشعراء الليبيين عن هذه الصورة التي رسمها له البياتي فهو يرتبط عندهم بالطفولة والبراءة والشهامة والحب صديق البسطاء ، حبيب الأطفال ، قريب من نفوس الفقراء ويقول لطفي الخولي عنه : " لم يكن مجرد ثائر لبلد واحد وإنما لكل البلاد ولكل الشعوب، ولم يكن تأثراً من ذلك النوع المكتبي البيروقراطي الذي عرفت التجارب الثورية في السنوات الأخيرة نماذج منه، بل كان أول ما يلزم بالممارسة العملية لكل ما ينادي به من أراء وأفكار وشعارات، ويربط بين الفكر والعمل والتضحية ومصيره الذاتي في نسيج واحد محكم " (38)

وهو عند علي الفزاني بطل رومانسي ؛ بل فتى يذكرنا بفتيان العرب غوث اليتامى والأيامى والثكالى وصديق للفقراء والجوعة

مات "جيفارا" حبيبي

كان جيفارا حبيبي

كان كلي

كان بعضي

وأنا لست بثكلى

إنما أنثى تغني

لفتى حر يموت

نهر حزن في طريقي

واليتامى والضحايا

وحشود الفقراء

إن جوع الطفل محنة -- !

إن كل الكون محنة !

(يا أبي أبغي رغيفاً)

أبن "جيفارا" الصديق (39)

وجيفارا عند علي صدقي عبد القادر شاعر يعيش في حلم يريد أن يحققه بالكلمة ، لكن الواقع علمه أن العلم لا يتحقق بالكلمات والنظريات ، فالمستغلون يستنزفون خيرات الأرض يتركون الفقراء للجوع والبؤس والشقاء والدموع ، وقد ثار جيفارا ليعيد الحق إلى أصحابه، وليكتب قصائده بالرصاص حين رأى أن أعداء الحياة لا يستجيبون لمنطق العقل والحكمة.

وترفع النساء أيديهن في الهواء

يهززنها تحية لفرقة الأنصار

الفرقة الثوار

لشاعر يقول شعرة بطلقة الرصاص

لإنه قد فقد المضمون بالحروف

وصبحت بلا هوية بلا عيون

تدور في الفراغ (40)

الخاتمة

ـ كان للتطورات السياسية والعلمية التي شهدها العالم بعد الحرب العالمية الثانية نتائج كبيرة غيّرت نظـــرة الإنسان إلى الحياة من حوله وأحدثت ثورة فيما كان يؤمن به من مفاهيم وقيم، جعلته يعيد النظر في كثير من الأفكار التي كانت تشكل رؤيته وترسم أسلوب حياته ولعل من أهم تلك التطورات التي حدثت في تلك الفترة ما أصبح ينادي به العلماء والمفكرون من ضرورة إعادة صياغة بناء حياة جديدة للإنسان تنبذ العنف والحـــروب وتدعو إلى السلام والتآخي الإنساني وتحذّر من المخاطر التي تهدّد الحياة بسبب التطور الهائل في صناعة الأسلحة الذرية.

ـ أما على المستوى العالمي أو الإنساني فقد اهتم الشـــعراء بقضايا السلام ونددوا بالحروب وبالتجارب الذرية، ووقفوا إلى جانب حركات التحرير في أمريكا اللاتينية والعالم الثالث، وضد التفرقة العنصرية في أمريكا وفي أفريقيا وأعلنوا تضامنهم مع المناضلين من أجل قضايا الإنسان وحريته في كل مكان من العالم ارتفعت فيه صيحات الحرية والكرامة ، وانعكست هذه القضايا في طرائق التعبير التي اتبعها الشعراء فمالَ شُعرهم إلى الوضوح والبساطة والبعد عن الغُموض

الهوامـــــــــــش :

([1]) ربا مجلة الفكر المعاصر العدد 20 أكتوبر 1966 ، ص 103
([2]) الســـور الكبير ، وزارة الإعلام والثقافة ، إدارة الفنون والثقافة ، ط1 ، طرابلس ديسمبر 1968
([3]) خالد زغبية ، قراءة نقدية في شعر الشبان الفصول الأربعة ، العدد 36، 37 الصيف 1987، ص 259
([4]) علي الرقيعي ، ليست مذهبية جديدة طرابلس العرب 13/1/ 1959م
([5]) المرجع السابق ، ص3
([6]) حسن محمد صلاح، بعد الحرب، دار النشر الليبية ، ط1 ، طرابلس 1963م ، ص72
([7]) علي صدقي عبد القادر، الأعمال الشعرية الكاملة ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، ط الأولى ، طرابلس ، 1985م ، ص 821
([8]) السور الكبير، ص 66
([9]) المرجع السابق ، ص 78
([10]) المرجع السابق، ص 143
([11]) المرجع نفسه، ص 174

([12]) علي القراني ، المجموعة الأولى من الأعمال الشعرية الكاملة ، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، مطابع دار الحقيقة، بنغازي، سبتمبر 1957
([13]) إدريس بن الطيب ، تخطيطات على رأس الشاعر، منشورات الشركة العامة للنشر والتربية والإعلان ، ط الأولى ، طرابلس 1976 ص 25
([14]) صلاح عبد الصبور، حياتي في الشعر دار اقرأ ، بيروت 1992م ص 26 .
([15]) تخطيطات على رأس شاعر ، ص 53
([16]) علي الفزاني ، المجموعة الأولى بين الأعمال الشعرية الكاملة ، ص 266
([17]) د. زكي نجيب محفوظ، فلسفة النقد ، دار الشروق، الطبعة الثانية ، بيروت 1983م ، ص 184 .
([18]) تخطيطات على رأس الشاعر، ص 27
([19]) صلاح عبد الصبور، الأعمال الشعرية الكاملة ، ص 15
([20]) تخطيطات على رأس الشاعر، ص 49
([21]) محمد الشلطامي، أنشودة الحزن العميق، منشورات جيل ورسالة ، ط1 ، طرابلس 1972 ص 36
([22]) أغنية العاشق ، الكتاب الشهري ، العدد 9 ، طرابلس 1973 ص 51
([23]) المرجع السابق ، ص 50
([24]) خالد زغبية، أغنية الميلاد، وزارة الأعلام والثقافة إدارة الفنون والثقافة، طرابلس، أغسطس 1966م من 50 - 51
([25]) المرجع السابق ، ص 53
([26]) علي صدقي عبد القادر الأعمال الشعرية الكاملة ص 284 - 285
([27]) بعد الحرب، ص 43 44
([28]) أغنية العاشق ، 69-70
([29]) المرجع نفسه ع ص 70
([30]) المرجع السابق، ص 74
([31]) أغنية الميلاد من .64
([32]) أشواق صغيرة، نشر اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب، طرابلس يوليو 1966 ، ص 54
([33]) لطفي عبد اللطيف، الخريف لم يزل دار مكتبة الفكر للطباعة والتوزيع ، الطبعة الثانية ، طرابلس 1967 ، ص 4
([34]) المرجع السابق، ص 56 - 57
([35]) علي صدقي عبد القادر الأعمال الشعرية الكاملة من 261 من 271 -
([36]) المرجع السابق، من 265
([37]) ديوان عبد الوهاب البياتي ، ح تجربتي الشعرية ، دار العودة ببيروت الحوام ص 406
([38]) لطفي الخولي ، جيفار وأبو غزالة ، مجلة الطليعة ، السنة الغالية ، العدد 11 نوفمبر 1967م، 400
([39]) علي القراني، المجموعة الأولى من الأعمال الشعرية الكاملة، ص 199
([40]) علي صدقي عبد القادر الأعمال الشعرية الكاملة ، ص 192